دولوز والعلامات: داخل السيميولوجيا وخارج أجهزتها

شـوقـي بـن حسـن

كيف يمكن لكتابٍ يضع العلامة في قلب تجربة التفكير أن يظلّ خارج تاريخ السيميولوجيا، أو على الأقل خطّها الرئيسي، وهي تعرِّف نفسها بكونها علم العلامات؟ كيف لنصٍّ يُنجز، على نحوٍ منهجي، تصنيفًا للعلامات ويختبر أنماط اشتغالها، ألا يُقرأ بوصفه إسهامًا في علم العلامات هذا؟ هل يكفي عدم اعتماده على الجهاز المفاهيمي الذي استقر عليه السيميائيون حتى يُقصى، أم أنّ فيه ما يُزعج طمأنينة هذا الحقل المعرفي، أو على العكس يوجد في ما تأسس داخل السيميولوجيا من مقولات وأطاريح ومفاهيم ما يُربك ما ورد في الكتاب؟ ذلك هو حال كتاب "بروست والعلامات"[1] لجيل دولوز، الصادر عام 1964، وهي ذات السنة التي صدر فيها الدرس المرجعي في تأسيس وتبسيط المعرفة السيميولوجية، ونعني نص "عناصر السيميولوجيا" لرولان بارط، وقد صدر بادئ الأمر ضمن مجلة "كومنيكاسيون"[2] قبل أن تتعدد طبعاته ويستقر بعنوان "المغامرة السيميولوجية"[3].

يذهب جيل دولوز في كتابه "بروست والعلامات" إلى اعتبار أن رواية "البحث عن الزمن المفقود" عملٌ "يُفلسف" العلامة من حيث إنها تُقدِّم "بحثًا في حقيقتها"[4]. يصل إلى هذه النتيجة من دون أن يُلحق الأدب بحقلٍ معرفيّ آخر هو السيميولوجيا، فبروست يُفكِّر في العلامات وهو يستعملها لإنشاء فنّه الروائي، وقد نجح دولوز في إظهار هذا البعد في الخط السردي العام للرواية "مسار تعلّم عبر العلامات"[5]؛ وصولًا إلى تأكيده الأخير، وهذا لبّ أطروحته، أن "البحث عن الزمن المفقود" تثبت أن "العلامة هي ما يُكره على التفكير"[6]. وسيستتبع ذلك فهم للعالم في مجمله بكونه لم يعد معطى مباشرًا وإنما مجموعة من العناصر تتبدّى كشبكة من العلامات التي لا تُدرك إلا بقدر ما تُرغم على تأويلها؛ إنها أشياء مطروحة لكي "تفكّ شيفرتها"[7]. وبذلك تغدو العلامة حدثًا وقوةً تُنتج الفكر، لا مجرّد وسيط لنقله. وانطلاقًا من هذا الأفق الذي اخترعه اختراعًا، كسر دولوز الفهم السائد للرواية بوصفها استرجاعًا لذيذًا أو مرثية نوستالجية لطبقة اجتماعية.

إن أهمية هذا التصوُّر لا تنبع، بالنسبة إلينا، من الوقوف على طبيعة المشروع البروستي، أو إعادة تحديده، بل تنبع من التجربة التي يقترحها الكتاب. فـ"بروست والعلامات" لا يكتفي بقراءة رواية، بل يُنجز تجربة في قراءة العلامات، تقوم على تصنيفها واستخراج أنماط المعنى التي تنتجها. وهو ما يجعل النص أقرب إلى فضاء أُعيد فيه النظر في العلاقة بين العلامة والمعنى والتجربة. ومع ذلك، فإن هذا الطابع السيميائي للعمل لم يُقابَل باعتراف داخل حقل السيميولوجيا، حيث ظلّ يُقرأ أساسًا بوصفه نصًا فلسفيًا في الأدب، لا بوصفه إسهامًا في التفكير في العلامة. لا يبدو هذا الإقصاء قائمًا إلا على كون محاولة دولوز لم تستند إلى الأدوات التي أعدّتها "مخابر" السيميولوجيا الأكاديمية في القرن العشرين، كما نجدها عند رولان بارط أو أمبرتو إيكو أو يوري لوتمان. عدا ذلك، كيف لكتابٍ يُكرِّس جهده لقراءة العلامات ويشتغل عليها نظريًا ألا يُقرأ من منظور علم العلامات ذاته، السيميولوجيا أو السيمائية حسب ما استقر من تسميات هنا وهناك.

لقد اقترح دولوز أن ننظر إلى بروست بوصفه مفكِّرًا في العلامات، لكن المفارقة أن السيميولوجيا لم تستوعب دولوز نفسه ضمن مفكِّريها. يطرح هذا الوضع سؤالًا حول إمكان إدماج مقاربة دولوز ضمن السيميولوجيا: هل يُشترط في التحليل السيميولوجي الانتماء إلى جهاز مفاهيمي محدَّد سلفًا، أم يمكن أن يتأسَّس أيضًا بوصفه ممارسة تأملية تنشأ من داخل النصوص؟ تنطلق هذه المقالة من فرضية مفادها أنّ التأمل/ التحليل السيميولوجي لا يكتسب وجاهته من انحصاره في اختصاص مؤسسي، بل من قدرته على إنتاج معرفة بالعلامات، بصرف النظر عن موقعه التخصصي (disciplinarité)، أي أنّ السيميولوجيا لا يمكن اختزالها في جهازها الأكاديمي، بل نُشير إلى إمكانية أن تكون أفقًا للتفكير. بناءً على ذلك، يسعى هذا المقال إلى استخراج المنطق المنهجي الذي يقترحه دولوز في قراءته لعالم بروست، عبر استخراج كيفية إنشائه بمادة العلامات ومن ثم كيفية جريان المعنى فيه دون افتراض تطابقٍ مع النماذج السيميولوجية المستقرّة.

التفكير في التفكير: نظرية دولوزية في العلامات؟

من خلال ربط حضور العلامات في العالم الذي يخلقه

النص الأدبي لـ"البحث عن الزمن المفقود"، بمسار التعلم، قدّم دولوز منظورًا للعلامات يتجاوز كونها وحدات دلالية ثابتة، لتكون قوى تُنتج أثرها عبر ما تفرضه من تأويل، أي من خلال ما تستدعيه من جهد في الفهم.

تتفرَّع عن هذا المنظور فرضية إمكانية صياغة انتظامات للعلامات في النص، وهنا توقف دولوز عند أربع انتظامات (كان يسميها تارة دوائر وتارة عوالم)؛ أولها كان علامات المظاهر الاجتماعية، وهي العلامات التي يجري تداولها داخل فضاءات الصالونات أساسًا. تتّسم هذه العلامات بطابعها السطحي والوظيفي، إذ لا تحيل إلى حقيقة داخلية بقدر ما تؤدي دورًا تنظيميًا داخل النسق الاجتماعي. فالإيماءات، والمجاملات، والألقاب، لا تُقرأ بوصفها تعبيرًا صادقًا عن حالات نفسية، بل كآليات لضبط السلوك وفق قواعد المكانة. إنها علامات فارغة نظرًا لكونها لا تحيل إلى مضمون (الابتسامة مثلًا لا تعني استملاحًا حقيقيًا لطرفة). ثانيًا، العلامات العاطفية، المرتبطة بتجارب الحب والغيرة، وهي علامات تتسم بالغموض وعدم القابلية للتحقق، إذ لا يمكن تثبيت دلالتها بشكل نهائي. وبذلك، فهي تمارس تسلطًا تأويليًا على الذات، حيث ينخرط البطل (أو أية شخصية تقف بموقع العاشق/ قارئ العلامات) في قراءة مفرطة لعلامات تصدر عن الشخصية موضوع الحب (الابتسامة تتحوَّل إلى وعد بتبادل مشاعر الحب، والنظرة إلى شخص آخر تصبح فرضية خيانة). ثالثًا، العلامات الحسية، المرتبطة بالتجربة الإدراكية وما تستتبعه من ظاهرة التذكر اللاإرادي التي اشتهرت بها الرواية، ومثالها الأبرز كعكة المادلين التي تفتح رائحتها نافذة زمنية، حيث يؤدي أثر حسي بسيط إلى انفتاح عالم كامل من الذاكرة. أخيرًا، العلامات الفنية، وهي التي تكشف عن جوهر التجربة. في هذا المستوى، يبلغ مسار التعلّم ذروته، إذ يكتشف البطل الراوي أنّ الحقيقة الممكنة لا تتحقق إلا عبر إعادة صياغة التجربة في عمل فني. لا تكون الحقيقة هنا معطى سابقًا على التعبير، بل نتيجة لعملية تركيب جمالي تُعيد تنظيم العلامات السابقة ضمن وحدة دلالية. وبذلك، تمثل العلامات الفنية مستوى تأويليًا أعلى، يُعيد إدماج مختلف أنماط العلامات ضمن أفق معنى واحد[8].

لكن كيف يمكن تفسير وصول جيل دولوز إلى هذه القراءة وهذه الانتظامات التي تدخل فيها العلامات؟ يسكت ملفوظ نص كتاب "بروست والعلامات" عن تفسير ذلك، فالدراسة تبدأ تقريبًا من هذه النقطة المتقدمة. في تقديرنا، يوجد انتقال منهجي اعتمده دولوز، فهو لم يذهب إلى سؤال الدلالة المقصودة بل اتّجه صوب فهم العملية التركيبية التي تسكن النص الروائي. فبدل أن يُسائل النص انطلاقًا من "ماذا يقصد مارسيل بروست؟"، انصرف تفكير دولوز إلى مساءلة ما الذي تفعله هذه العلامة التي وضعها بروست داخل النص. كيف تعمل؟ وبماذا ترتبط وما الذي تُحدثه؟ عندها لن يكون دور العلامات نقل رسالةٍ إلى القارئ بل ستصبح هي بذاتها حدثًا يفرض مسارات تعلّم طوال النص. العلامة بالنسبة إلى دولوز هي المحرِّك: محرِّك عملية التعلم، ومن ورائها هي محرِّك الفكر، ولننتبه هنا على أن الفكر المعني هو فكر القارئ، بذلك فإن دولوز قدَّم في كتابه هذا عناصر أولية لنظرية في القراءة سنحاول كشف ملامحها لاحقًا. ما يعنينا هنا أنه كتب بوضوح أن "الفكر هو لا شيء من دون شيء ما يُجبر على التفكير. شيء يُعنِّف الفكر"[9]، ونحن نعرف أن ما يُجبر على التفكير هو العلامة، كما كتب في موضع آخر غير بعيد[10]. لا ينطلق التفكير، في هذا الأفق، من قرار ذاتي أو نية، بل من صدمة أو مصادفة أو إكراه. العلامة لم تكن معطًى معرفيًا جاهزًا، بل عامل إثارة، تنقل الذات من وضع التعرّف إلى وضع الإشكال، وهذا الوضع يقلب عملية التأويل أيضًا، إذ لم يعد كشفًا لمعنى مضمر بل أصبح استجابة لقوة.

ولعلنا نقف هنا على أحد أسباب اهتمام دولوز برواية "البحث عن الزمن المفقود"، فقد وجد في تركيبها المكثف، الضامن لوجود مسارات فهم غير التي تقف عندها القراءة الخطية أو المدرسية، مساحة لمعالجة قضية المعنى مما سيبسط بعضًا منه في أعمال أخرى لاحقًا. لقد ناهض دولوز فكرة حصر الرواية في عملية الاسترجاع (خصص فصلًا برمته بعنوان: الدور الثانوي للذاكرة)، ولا يبدو أن هدفه مهاجمة شريحة واسعة من القرَّاء بل ضرب أفلاطون، فكما يوحي الظاهر في رواية البحث عن الزمن المفقود بأن الاسترجاع هو جوهر النص في حين يثبت دولوز زيف ذلك، فالأمر ممكن مع قناعة قديمة رسَّخها أفلاطون بأن المعرفة في جوهرها عمليات استرجاع. يقول دولوز، من خلال رواية بروست، إن الأمر ليس كذلك، فالمعرفة هي قبل كل شيء اشتباك وارتطام.

وبشكل أوسع، فإن افتراض أنَّ المعنى قائم سلفًا في النص، أو في العالم بوصفه نصًا، يجعل من كل قراءة عملية استرجاع. في حين أنّ العلامة، عند دولوز، تُعرِّف بما تُحدِثه: فهي تُربك، تولّد مشكلة، وتستدعي بناء فرضية، وتجعل المعنى يتكوَّن داخل هذه العملية لا شرطًا سابقًا لها. بذلك، يُعيد دولوز ترتيب العلاقة بين النص والقارئ من علاقة كشف معنى موجود سلفًا إلى علاقة اكتشاف معنى لم يوجد من قبل.

ترتَّب على هذا التصوُّر نقل مارسيل بروست من موقع "الكاتب" إلى أفق أقرب إلى المفكِّر، بالمعنى الذي يجعل من عمله انخراطًا في تفكير منهجي في العلامة. غير أنّ محاولة دولوز لم تتخذ شكل بناء مفاهيمي صريح، وأكثر من ذلك

انشغل المفكّر الفرنسي بمشاريع مغايرة صنعت شهرته جعلت منه "فيلسوفًا" حصرًا. وفي الحقيقة، كما كان من الممكن استئناف أطروحاته حول العلامة، كان يمكن للنظرية الأدبية أن تستثمر في وصول دولوز إلى أن الرواية قادرة على التفكير من دون الحاجة إلى اختراع جهاز مفاهيمي لكن لن نجد كبير صدى لهذه الفكرة أيضًا. كان دولوز ضحية تعدّد مشاريعه.

عمومًا يبدو واضحًا أن دولوز كان يدافع على إمكان وجود منطق عفوي لممارسة وإنتاج الخطاب الفكري خارج كل انضباط منهجي مُسبق. يمر ذلك من خلال مفهوم العلامة؛ الأوسع من مفهوم المفهوم، فجميع أشكال التعبير هي في النهاية اشتغال على العلامات. إذ إن العلامات، من حيث هي وسائط إنتاج المعنى وتداوله، لا تنتمي إلى حقل دون آخر، بل تتقاطع فيها مختلف الممارسات المعرفية. وإذا كان دولوز يدافع عن وجود تفكير في العلامات عبر النص الروائي، فنحن ندافع عن كونه، هو بالذات، مفكّر في العلامة.

يقتضي هذا الطرح إعادة النظر في المسار الذي سلكته السيميائيات في القرن العشرين التي سرعان ما انطمرت تحت غطاء نظري كثيف حيث اتجهت، في كثير من صيغها، إلى بناء جهاز مفاهيمي معقّد يهدر أحيانًا جوهر المادة المطلوب فهمها، سعيًا إلى إحكام ضبط الظاهرة الدلالية ضمن نسق اصطلاحي ثابت ما أغفل فتح السيميولوجيا على ممارسات عدة (منها التجربة كما فعل دولوز)، وذلك ينطوي على ما يمكن تسميته بمنطق اقتصادي يُحرِّك المعرفة لا يسمح هذا المقال بالتوسُّع فيه.

دولوز ضدّ السيميائيين: خط وهمي يفصل بين قراءتين

لم يشفع عمق انشغال جيل دولوز بمسألة العلامة كي يُدرج ضمن "المؤسسة السيميولوجية" التي تبلورت في القرن العشرين، كما أشرنا سابقًا. ذلك أن أطروحة دولوز حول العلامات تتناقض مع ما استقر مع التأسيس الاصطلاحي لحقل السيميولوجيا، خصوصًا في إطار المشروع البنيوي. لقد عاصر دولوز صعود اللسانيات البنيوية في فرنسا وتوسّع تطبيقاتها، وقد تشكّل فكره والمناخ الثقافي والفكري العام واقع تحت إشعاع فرديناند دي سوسير، كما عاصر أشهر أسماء الجيل الثاني للسيميولوجيا: لويس هيلمسليف، ورولان بارت، وألغريداس غريماس، غير أنّ علاقته بهذا الأفق لم تتخذ شكل تبنّي جهاز مفاهيمي في الاتجاهين، لا هو يأخذ منهم ولا هم يأخذون عنه. كان مَن يندرجون ضمن تخصص السيميائيات يحاولون اجتراح فضاء للعلامة تكون فيه مركزًا وكان هو يجعل منها شرطًا لحدوث الفكر، وبالتالي يُعيدها إلى الفلسفة. وعلى ذلك، فليس سبب القطيعة أن منجز دولوز النظري غير سيميولوجي وإنما هو ضحية مجاورة تاريخية في الوقت الخاطئ. كان لا بدَّ من حماية الجهاز الاصطلاحي والتصوري لعلم ناشئ، وبالتالي هناك حاجة إلى استعمال القسوة الإقصائية، كتلك التي تعرض لها دولوز. وإذا كتابه "بروست والعلامات" يعرض تصنيفًا محكمًا للعلامات انطلاقًا من نص أدبي واحد، فمن منظور تأسيسي قد يبدو هذا النجاح خطيرًا، فالحقول المعرفية تتأسَّس حول نظريات تُقارب العام والشامل وتحاول الابتعاد عن التجزيء قدر الإمكان. من منظور أوسع، يتجاوز الإطار التاريخي، يمكن الجزم بأن طرح دولوز لم يخل مما هو الشرط العميق للانتساب للسيميولوجيا وهو إنتاج معرفة داخلها. ونرى أنه فعل ذلك باقتدار لكنه هو نفسه لم يكن معنيًا بالانتساب إلى السيميولوجيا، لأسباب بعضها راجع إلى الموقع المهني في الجامعة وأخرى لتقسيم العمل بين المعارف.

كانت السيميولوجيا لحظة تأليف ونشر "بروست والعلامات" تحتاج إلى تكريس دي سوسير (لم يكن بيرس مقروءًا في فرنسا آنذاك). وحين نضع ما اقترحه دولوز كمنظور للعلامة في مواجهة دي سوسير سنجد أن تبني المنظور الدولوزي يعني نسف الأمل ببناء حقل متجانس. فالعلامة عند سوسير تُحدَّد بوصفها اقترانًا اعتباطيًا بين دالٍّ ومدلول داخل نسق، حيث تستمد العلامة قيمتها من شبكة الفروق التي تنتظمها. أما عند دولوز، فالإشكال لا يتعلّق برفض هذا الوصف التقني في ذاته بل بموقع العلامة من العالم (اللغة جزء من العالم والنصوص كذلك). فالعلامة لا تُفهم أولًا كعلاقة دلالية مستقرة، بل كقوة تُرغم الفكر على أن يبدأ. من هنا، لا تُعرَّف العلامة بما تدلّ عليه، بل بما تُحدثه: ليست بنيةً يمكن تفصيلها، بل حدثًا يهز؛ ليست حاملةً لمعنى، بل مولّدةً لمشكلة. فهي تُدخل الفكر في حالة لاتطابق مع مألوفاته. الانتقال من منظور البنية إلى منظور الحدث لا يقتضي إلغاء الأول، بل إعادة تحديد مستوياته. فالبنية تُحيل إلى شروط انتظام العلامة داخل نسق، أي إلى شبكة العلاقات التي تُتيح تمييزها وتحديد موقعها. أما الحدث، فيحيل إلى كيفية حضور العلامة في التجربة.

وعليه، لا يتعارض المستويان إلا إذا اختُزل أحدهما في الآخر. وبذلك يمكن النظر إلى العلامة بوصفها مفهومًا مزدوج الطبقة: نسقيًا من حيث انتظامها، وحدثيًا من حيث قدرتها على إنتاج الفكر. وفي هذا التوتر تحديدًا تتحدَّد فرادة المقاربة الدولوزية، كما يتحدَّد في الآن نفسه سبب صعوبة إدراجها داخل السيميولوجيا في صيغتها المؤسسية وهي تخشى على نسف بنائها المستحدث.

أما المؤسِّس الآخر للسيميولوجيا، تشارلز ساندرز بيرس، فيمكن ضبط العلاقة بين تصوّره للعلامة وتصوّر جيل دولوز انطلاقًا من تمييز منهجي بين تقارب شكلي واختلافٍ نظري حاسم. يظهر التقارب، للوهلة الأولى، في ميل المشروعين إلى تصنيف العلامات: يبلور بيرس جهازًا تصنيفيًا قائمًا على ثلاثياته المعروفة، بينما يستخرج دولوز، في قراءته للبحث عن الزمن المفقود، أربعة أنماط من العلامات (مظهرية، عاطفية، حسية، فنية). غير أنّ هذا التشابه يفقد دلالته بمجرد ردِّه إلى اختلاف المنطلقات.

يندرج تصوُّر بيرس ضمن أفق منطقي ـ فينومينولوجي، حيث تُفهم العلامة بوصفها علاقة ثلاثية (مُمثِّل/ موضوع/ مفسِّر) تشتغل داخل سيرورة دلالية (semiosis) قابلة للتعميم، وتُعنى بتفسير كيفية إنتاج المعنى بوصفه عملية تأويليةـاستدلالية مستمرة[11]. في هذا الإطار، يندرج التصنيف ضمن مشروع يهدف إلى ضبط شروط اشتغال العلامة داخل نسق قابل للتوسّع.

في المقابل، لا ينبني تصنيف دولوز على جهاز علاماتي مُسبق، بل يُستخرج من داخل نص أدبي بعينه. لذلك لا تُفهم أنماط العلامات عنده بوصفها فئات نظرية عامة، بل كآثار دينامية لقراءة تتتبّع تشكُّل المعنى داخل تجربة. العلامة هنا لا تُعرَّف بعلاقتها بعناصر نسقية، بل بقدرتها على إحداث انتقال في الفكر: من الإحساس إلى الإشكال، ومن المعطى إلى ما يفرض تأويله. يمكن، تبعًا لذلك، تحديد الفرق على نحو حاسم: يُقدِّم بيرس نظرية في العلامة تُفسِّر اشتغال المعنى بوصفه تدفقًا تأويليًا، بينما يُقدِّم دولوز فلسفة في العلامة تُفسِّر شروط انبثاق التفكير ذاته. فإذا كانت السيميوزيس عند بيرس تُشير إلى استمرارية إنتاج المعنى، فإن العلامة عند دولوز تُحيل إلى لحظة الإكراه التي تجعل هذا الإنتاج ضرورة، لا مجرد إمكان.

يُمثِّل أمبرتو إيكو امتدادًا للخط البيرسي داخل التفكير السيميائي، حيث بلور نظرية في القراءة تُعنى بضبط العلاقة بين انفتاح النص وحدوده. فالعلامة، في هذا الأفق، تشتغل ضمن سيرورة تأويلية منظَّمة، لا تُترك لانفلات الدلالة، بل تُقيَّد بجملة من المحددات: تعاون القارئ، والكفاءة الموسوعية، ومبدأ ترجيح التأويلات الأكثر اتساقًا مع القرائن النصية[12].

بناءً على ذلك، تُفهم القراءة بوصفها شكلًا من "التعاون" بين النص والقارئ، حيث لا يكون المعنى معطًى جاهزًا ولا مفتوحًا بلا ضابط، بل نتيجة تفاعل مضبوط بين استراتيجية نصية ومبادرة تأويلية. ظاهريًا يفترق هذا التصوُّر جذريًا عن المنظور الذي يبلوره جيل دولوز، إذ لا تُعرَّف العلامة عنده من حيث إمكاناتها التأويلية، بل من حيث قدرتها على فرض مسار تفكير. الإكراه الدولوزي لا يبدو متجانسًا بالمرة مع التعاون الإيكوي. فهذا يرى أن العلامة تنظِّم التأويل، وذاك يجد أنها تُرغم عليه؛ وهذا يعتبرها تفتح أفقًا من الإمكانات، فيما يجد الآخر أنها تُدخل القارئ في وضع إشكالي لا يمكن الخروج منه إلا بإنتاج معنى.

يمكن، تبعًا لذلك، صياغة الفرق على النحو التالي: عند إيكو، يُعدُّ التأويل الوظيفة المركزية التي تنتظم حولها العلاقة بالعلامة، أما عند دولوز، فلا يُشكِّل التأويل إلا لحظة ضمن مسار أوسع هو مسار إنتاج الفكر. فإذا كانت العلامة عند إيكو تُقاس بقدرتها على توليد تأويلات منضبطة، فإنها عند دولوز تُقاس بقدرتها على إحداث إكراه يُحوِّل التأويل نفسه إلى ضرورة.

ومع ذلك، يلتقي المشروعان في نقطة حاسمة، هي رفض اختزال المعنى في نيّة المؤلف. غير أنّ هذا الالتقاء يخفي اختلافًا في تحديد مركز الثقل: فبينما يُبقي إيكو التأويل داخل أفق النص، ينقل دولوز العلامة إلى أفق التجربة، حيث لا يكون المعنى نتيجة تنظيم، بل أثرًا التوتر تُحدثه العلامات داخل الفكر.

القراءة السيميو ـ دولوزية: في ما بين الإكراه والتعاون من اتصال

يمكن تحويل التقاطع بين مشروع أمبرتو إيكو وقراءة جيل دولوز إلى برنامج منهجي، يقوم على توظيف بعض مفاهيم إيكو بوصفها عدّة وصف لتحليل ما ينجزه دولوز، دون افتراض انتمائهما إلى نفس الأفق النظري. يتعلق الأمر، إذن، باقتراض إجرائي لا بتبنٍّ مرجعي، بما يسمح باستخراج ملامح نظرية في القراءة عند دولوز يمكن تسميتها "القراءة السيميو ـ دولوزية".

نعتبر هنا أن كتاب بروست والعلامات يمثل موقع اشتغال القراءة السيميو ـ دولوزية، وهذه الأخيرة لا تمثل نظرية مكتملة في قراءة، فمثلًا لا يحدّثنا دولوز عن اللقاء الأول بالنص، وأول الاشتباكات مع الرواية، العنوان أو الجملة الأولى على سبيل المثال، فلقد بنى كتابه على معرفة مسبقة بمجمل المدونة البروستية، وهو ما لا يتوفر لقارئ عادي، وبالتالي فمفهوم التعلم الأساسي في المقاربة الدولوزية جرى تطبيقه من نقطة متقدمة جدًا في استقراء عوالم البحث عن الزمن المفقود. السؤال الافتتاحي كان التساؤل عمَّا يُشكِّل وحدة رواية البحث عن الزمن المفقود يتبعه تفنيد مباشر للقراءة السائدة بكونها فعل استرجاع. هنا دولوز ليس فقط عليمًا بالرواية بل بالقراءات المتداولة حولها. وهو حين ينقضها يُبيِّن أن فرضيته أكثر صلوحية. وهذا الفعل تحديدًا هو ما يستدعي أمبرتو إيكو، لأن القراءة هي تعاون بين ما في النص من علامات (موسوعة النص الثابتة) وما في موسوعة القارئ، وهذا القارئ يبني وفق موسوعته ووفق

ما يضعه النص أمامه من علامات فرضيات يسندها النص أو ينقضها[13]، وفي حال تناقضت فرضية للقارئ مع ما جاء في النص فنحن على طرف الخيار، إما أن يُساير النص أو تنهار عملية القراءة تمامًا. إذا عدنا إلى مثال كتاب "بروست والعلامات" فلو أن عوالم الرواية من تطوُّر للشخصيات وطرق اشتغالها وغير ذلك لم تسعف دولوز بالحجج التي تدعم قوله بأن ما يمثل وحدة البحث عن الزمن المفقود هو التعلم عبر العلامات وليس عمليات الاسترجاع، أصبح هذا الكتاب بلا معنى. كنا سنقول ببساطة أنه قدَّم قراءة مسقطة أو خاطئة. غير أن العكس هو الصحيح، يذهب دولوز بفرضياته إلى أبعد مدى ممكن في النص بل يخرج عنه بضرب من التنظير يتجاوز النص البروستي.

إذن قبل مرحلة التعلّم الدولوزي هنا مرحلة التعرف الإيكوي، حيث من الضروري التعاون مع النص لتحريكه أو لتشغيله وفهم معالمه (مرحلة مرَّ بها دولوز بالتأكيد لكنها غائبة في نصه) وهي المرحلة التي تتمخض عن اصطدام بعلامات بعينها تضغط باتجاه ما سمّي بالإكراه التأويلي، ومن ثم بناء الفرضيات، وهنا تصبح العلاقة مع النص متوترة بالضرورة، فإما أن تؤدي الفرضية إلى اكتشاف انتظامات كالتي وجدها دولوز ومن ثم بناء معنى، أو تنهار عملية القراءة، أي يُغادر القارئ النص ويتركه لعدم القدرة على جسر الفجوة بين افتراضات التعلم وبين واقع العلامات. عمومًا ما حدث في كتاب "بروست والعلامات" هو أن فرضيات دولوز نجحت في بناء معنى جديد للبحث عن الزمن المفقود.

من هذا المنظور تصبح القراءة السيميو- دولوزية مقاربة لا تنطلق من فرضية غياب المعنى الجاهز، وهذا جوهرها، بل من فرضية أنَّ النص يشتغل كآلة علامات تُنتج فكر القارئ عبر الإكراه. وعليه، لا تُقاس القراءة بما تستخرجه من دلالات، بل بما تُحدثه من تحوُّلات في وضع القارئ: من التعرّف إلى الإشكال، ومن استهلاك المعنى إلى إنتاجه.

يمكن تلخيص هذا المسار في أربع محطات مترابطة: تبدأ بلحظة الانفتاح على متاهة النص (يمكن أن يكون ذلك بفضل عناصر من خارجه، العنوان أو أبعد من ذلك مثل مقال نقدي عن رواية أو فقرة ترويجية) حيث تظهر في أفق التلقي علامات مربكة لا تنتظم في معنى لتبدأ عملية التعرُّف وتفعيل موسوعة القارئ، ومع دخولها تبدأ أيضًا عملية التعلّم عبر العلامات (إضافات لموسوعة القارئ) ترافقها عملية بناء افتراضات جراء التعرض للإكراهات التأويلية للنص[14]، وتكون هنا العلامة قوة تدفع نحو مسار بعينه وصولًا إلى أرضية دلالية مقبولة من الطرفين.

القراءة بذلك تظل في نفس الوقت تعاونًا كما قال إيكو، لكنها تمضي تحت ضغط من العلامات المكونة للنص كما رأى دولوز[15]. أما المحطة الأخيرة فهي عملية إبداع، هي ذات ما وصل إليه دولوز بأن الدائرة الرابعة من العلامات، العلامات الفنية، تمثل البوتقة التي تصهر فيها جميع انتظامات العلامات الأخرى، أي تحويل التجربة إلى منجز فنّي، أي إلى إبداع. وهذا مستوى الإبداع بالعلامات الحسية أو اللغوية ذلك الذي تنتج عنه رواية أو قصيدة أو لوحة.

لكن هناك مستوى آخر من الإبداع يجدر التوقف عنده، فالمقاربة التي تدمج منظوري دولوز وإيكو يمكن أن تساهم في فهم تلك العبارة الشهيرة التي ارتبطت باسم دولوز في تعريف الفلسفة، بكونها "إبداعًا للمفاهيم"[16]؛ المفاهيم بوصفها العلامات الأكثر ارتباطًا بالنص الفلسفي. لا يعني هذا النمط من الإبداع المؤلِّف أو الفيلسوف صاحب النص وحده، بل القارئ أيضًا. كأن دولوز يقول إن النص الفلسفي كي يكون كذلك فعليه أن يُفجِّر في ذهن قارئه عملية "إبداع المفاهيم"، أن يُرغمه على هذا النوع من الإبداع. والمفاهيم هنا هي تلك المنظورات التي نعجز أحيانًا عن صياغتها في شكل مسبوك، لكنها تكون قد أُدمجت في منظوراتنا للعالم.

د. شـوقـي بـن حســن
جامعة لورين ـ فرنسا

الهوامـش

(1) اعتمدنا في هذه الدراسة طبعة عام 1998، بروست والعلامات، جيل دولوز، PUF.
(2) انظر العدد 4 من مجلة 1964 ،Communications، صص 91 - 135.
(3) رولان بارط، المغامرة السيميولوجية، سوي، 1985.
(4) بروست والعلامات، ص115.
(5) بروست والعلامات، ص36.
(6) بروست والعلامات، ص118.
(7) بروست والعلامات، ص37.
(8) بروست والعلامات، ص9 – 28.
(9) بروست والعلامات، ص117.
(10) بروست والعلامات، ص118.
(11) انظر مدخل تشارلز ساندرس بيرس في الموسوعة العربية أرابيكا، آراء الجرماني.
(12) القارئ في الحكاية، أمبرتو إيكو، منشورات غراسي، الترجمة الفرنسية، 1985، ص30.
(13) القارئ في الحكاية، ص84.
(14) القارئ في الحكاية، ص95.
(15) وصل إيكو فعلًا إلى هذه النتيجة في كتابه "حدود التأويل" لكن دون مرور بدولوز.
(16) انظر مقدمة كتاب "ما هي الفلسفة"، جيل دولوز وفليكس غتاري، ترجمة مطاع صفدي وفريق مركز الإنماء القومي، 1997.